Yasser ABDEL HAFEZ excerpt from [The Book of Safety]

(1)

عادة لا ينتبه لي أحد. أراهن على هذا وأتمناه، أن تظل عين الضحية معلقة بالجالس في فخامة إلى المكتب الضخم، هذا تصرف أي متهم يدخل إلينا مهما بلغت نباهته، لا يراني إلا بإشارة من رئيسي نبيل العدل إلي، ساعتها اضطر للخروج من الظلال.

"ظل الساعي إلى الحقيقة".

التعريف الذي أحببته لنفسي. يفكر وأكتب، شاءوا أن أكون يده وقلمه. لا ينبغي لي الجلوس بمحاذاته تماماً وإذا سار فأنا خلفه بخطوة كريفية تتبع زوجاً لم تصله قواعد الحضارة. والقادم يعلم سلفاً، لهذا لا يوليني ولو مجرد نظرة، عيناه معلقتان بمن يقرر مصيره وليس بمن يدونه. التدوين مجرد حالة شكلية لتوثيق القرار. غير أن مصطفى إسماعيل انتبه منذ اللحظة الأولى لوجودي، حانت منه التفاتة خاطفة خلفه حيث أجلس، وبعد انشدادي لأفكاره ظللت مسكوناً بتلك الالتفاتة أبحث لها عن تفسير.

لكن، وللأمانة، أنا ومهنتي لسنا على هذا القدر من الضآلة، ماذا يمكنني تسميته؟ إدعاء للتواضع، أم رغبة متأصلة في الانسحاب؟ مزيج من كليهما أعماني عن موقع مميز لم استخدمه كما ينبغي. شخص آخر متمرد كفاية كان بإمكانه نشر أسرار لم تكن لتخطر على البال، وهذا ما أدركه مصطفى الباحث عن تخليد حكايته، ووجد في الرسول. ربما لهذا استجبت لذاك الإعلان الغريب وجئت لأجد الدور المكتوب لي. خلال فترة عملي تعاظم داخلي شعور بالقوة لا حد له، أسمع الناس يتحدثون عن واحدة من القضايا الشهيرة المتداولة على الساحة، كل يتبنى وجهة نظر ويدافع عنها بقوة مقدماً استنتاجاته ودلائله، غير أن الحقيقة مختلفة عن المطروح، وأنا كنت من القلائل المتاح لهم الاطلاع على الحقيقة الغائبة، لكني لا أستطيع إطلاعهم على ما أملك، ملزم بالصمت دون أمر، امتثالاً لطقس يتعلمه من يأتي إلى "قصر الاعترافات"، غير أن هذا ناسبني، لم تضايقني السرية، كفتني القوة، الثقة المتزايدة التي تجبر من حولي على الاقتراب بحذر، وكأني إله تواضع ونزل للسير بينهم.

فكرتي التمهيدية عما يسعى له مصطفى سقطت مع اعترافاته، لم يكن يريد مني شيئاً مما تخيلته، لم يكن مكترثاً...

كاذبون من قالوا أن سيرة الرجل ما يتبقى منه.. يسيروننا بكلمات عقيمة تثبت في أذهاننا، ونتحرك وفقها مثل الآلات المجردة من التفكير. أنت مجموعة أفعالك التي تقوم بها في التو واللحظة، وعندما ترحل يملأ الهواء حيزك. الأفعال مصيرها النسيان، وكتاب التاريخ لن يحفل على الإطلاق بما كنت تخطط له، يرى ما يحب أن يراه.. امرأة جميلة تنظر إليك لكن عقلها وقلبها لا يلمحانك. لا تتحامق وتشغل بالك بمسألة الخلود.

كان يشتغل بهوايته وكأنه ما زال حراً طليقاً، يضم آخر إلى قائمة جنوده، كما انتقى المختارين السابقين.. يومئ فيصبحون رهن إرداته، ينتظرون الأوامر وساعة التنفيذ. أنا أحد مختاريه، أنقذني من الأبحاث المكتبية وتلفيق النظريات المقتطعة من عشرات الكتب، بواعث الجريمة، سلوك الجماهير عند غياب الهدف الجماعي، حقد الفقراء الذي يسير البشرية. أنقذني من تمثيل دور غير مرضي عنه...

"ليس مفيداً".

على حد تعبير نبيل العدل. الذي قضيت الفترة الأولى من تدريبي محاولاً السيطرة على رهبتي منه، أو مما يمثله.. الشكل الأكثر نعومة للسلطة، تلك التي لا يمكن التكهن بما تفكر فيه أو تخطط له.

"ربما مفيد لكن لا بد من ربطه بالواقع، نحن لسنا مركز أبحاث، جزء منا ممكن، إنما لنا وجوه أخرى لا بد تجربها".

ساعدني مصطفى في اكتشاف وجوهي الأخرى، منحني الكفيل بنقلي إلى الضفة المقابلة، من عدو إلى حليف، ولم يكن علي سوى انتظار إبلاغي بتفاصيل مهمتي.

عرفناه قبل مجيئه، أوراقه السابقة على المكتب، لكننا عادة لا نعتد بتلك الأوراق، ندرك كيف تمت كتابتها، يزفر العدل...

"تعذيب وتلفيق وقرف".

لكنه أيضاً لم يكن معجباً بما قدمته. لم يلتقط من تقريري إلا الكلمات البارزة ذات المعنى الواضح. كنت قد كتبت أن...

"ما أتاه مصطفى إسماعيل وأعوانه يذكر على نحو خاص بأسطورة وحقيقة علمية، الأسطورة تتعلق بـ "الرجال المبتهجون" الذين التفوا حول روبن هود. وما يتصل بتلك الأسطورة حقيقة علمية..

الرجال بطبيعتهم النفسية والجسدية في حاجة إلى نشاط قد يتجاوز إمكانياتهم نظرياً. هذا الجزء المبتهج في الرجل يحتاج إلى إرضاء. هذا يفسر تفضيل الذكر للحرب على الحوار مثلاً، ثم، وبعد الإخصاء المعنوي لتلك الطبيعة باسم التمدن، أصبحت تجد متنفسها في إدمان الجنس، الرياضة، الخمر، لكن آخرين لا يمتلئون إلا بعراك متمرد يعتقهم من السيطرة".

وصف رئيسي ما قدمته له بأنه...

"تقرير عاطفي".

ورغم أن الجملة لها معنى مهني قاسٍ إنما أعجبتني، تصلح عنواناً ملغزاً لكتاب، ربما أستخدمها، أوافق على عرض أنور الورقي صاحب المطبعة الذي يرغب في الترقي درجة في مهنته ويحمل لقب ناشر، يعتقد أن ما أحكيه له عما يدور في قصر الاعترافات يصلح كتاباً يكشف كيف تدور الأمور في البلد...

"وبعدين يا أخي فرصة نخرج من هنا، نشوف الدنيا قبل ما نموت".

أجعل من العدل بطلاً للكتاب، أتخطى الحدود وأضع اسمه، ومن ليصدق أن نبيل العدل شخصية من لحم ودم تشغل منصباً له حساسيته، من سيعلم سوى أعضاء النادي، خاصة الخاصة، من ليقتنع أن هذا يحدث في الواقع؟ رغم الخطورة لا يمكن تفويت شخصية فنية كهذه، لديه من الملامح ما يضمن نجاح العمل، إخلاصه الأعمى لمجموعة المبادئ التقليدية، ولعه وخضوعه للجمل الرنانة التي ما أن ينطقها حتى تبدأ في حفر موسيقاها داخل عقلي وكأني في حضرة منوم مغناطيسي. تسيره فلا تملك إلا أن تصدقه مجازفاً بما تعتقده. هل كان ليضحي برنين "تعذيب وتلفيق وقرف" ليبحث عما يستقيم مع تقريري العاطفي؟ أزعم أني عرفته، زاملته خمسة أعوام، هو من اختارني، للمسؤول في موقعه حق اختيار مساعده.

جمعونا في غرفة واسعة بعد أن اجتزنا اختبارات متعددة، نجهل ما ينتظرنا، ولم نغامر بالسؤال. لا صوت، لا دردشة بين الموظفين كما المعتاد، لا باب يغلق أو يفتح. من صحبنا إلى الغرفة لم ينطق بحرف، صعدنا من الدور الأرضي إلى الثالث، سرنا في ردهة طويلة، أشار دليلنا إلى نهايتها ومضى.. غرفة فارغة إلا من خمسة كراس، لا كرس زائد، كأنها تتوقع مجيئنا.

لم أستطع تحديد عمره، ملامحه حيادية إلى درجة يصعب معها تكوين انطباعات. تفحصنا وملفات معلوماتنا بين يديه، ثم لم ينطق سوى بكلمتين...

"خالد مأمون".

واستدار ليغادر الغرفة تاركاً الباب مفتوحاً، تبعته وأغلقت الباب خلفي محاذراً ألا يرتطم. خيل إلي أن على وجهه ابتسامة، ظنه في محله، صدق حدسه وانتقى مساعداً مطيعاً لا تلزمه كلمات كثيرة ليؤدي المطلوب منه.

صيغة الإعلان المنشور في الجريدة أجبرتني على التوقف أمامها...

"بخطك اكتب قصة حياتك كما تراها في 300 كلمة. يمكنك استخدام المدارس الأدبية المختلفة لإيصال الفكرة. أرسل الأوراق في مظروف إلى العنوان المذكور وأسفله: يصل ويسلم إلى المسؤول عن مسابقة "لمن يريد أن يعرفني"، وسوف نتولى الاتصال بك".

على هذا أرسلت المطلوب دون أي فكرة عن طبيعة الجهة وراء الإعلان أو ما الذي تريده من المتقدمين. أدهشني لاحقاً معرفة أنه تم اختيار ثلاثين خطاباً من بين آلاف وصلت. دعنا نكون عقلانيين، هل ترسل قصة حياتك إلى عنوان وهدف مجهولين إلا إن كنت مثلي تنتظر اتصالاً غامضاً عبر طريق لا تتخيله، تمر الأيام لكنك لا تفقد حماستك، تحافظ على وتيرة المتابعة حتى لا يضيع النداء. لكن وبعد حصوله تكتشف هذه المسخرة. كنت أتخيل أني مختلف عن الناس وأتجنبهم.. أكتشف أن آلافاً ينتظرون النداء. هل ما فات كان عمراً مهدوراً!

الثلاثون تمت تصفيتهم سريعاً إلى خمسة، شخص ما أتى يتأمل الطابور الواقف على الباب.

بعد ثلاثة أعوام بالضبط اطلعت على آلية الانتقاء، وقفت بين ما يقرب من أربعين يرغبون الحصول على الجائزة المجهولة، جئت من بيتي وانضممت إليهم حسب التكليف، متظاهراً بأني متقدم مثلهم. ساعتين بالتمام أوجه الحوار، الحدس يحركني لتخمين الأفضل، أستفزه وأتلاعب بأعصابه، اختبار من قائمة تحدد الثلاثة المختارين.

اختبارنا الأخير تلخص في أن يعيد كل منا كتابة قصة حياته من جديد، ليس من الضروري بالجمل والأحاسيس نفسها التي أرسلناها في الخطابات، بأي طريقة تتراءى لكل واحد، فقط للمقارنة والتأكد من أنها ليست منحولة، أو أن آخرين تولوا كتابتها عنا. انسحب أحدنا بحجة ما لم تتناه إلى مسامعنا لكن المسألة كانت واضحة.. ليست لديه قصة تخصه.

"أول مرة بكيت فيها شخصاً كانت عندما مات فهمي ابن السيد أحمد عبد الجواد، أول مرة انتابني الفزع عندما قرأت عن تحول جريجوري سامسا، تستيقظ من النوم فتجد نفسك حشرة وعليك التعامل مع العالم على هذا النحو، ولأنك تعرف أن الدنيا لا منطق لها وأن الحكايات أصدق من الواقع، إذن فكل شئ وارد حتى لو كان كابوسياً إلى هذا الحد. لكن في فترة لاحقة أدركت من خلال "ثلاثية نيويورك" أن المعاني مختلطة بدرجة غير عادية وأنه غالباً لا قيمة لشيء. هكذا يمكنني أن أصف حياتي.. من كتاب لآخر، ومن حكاية لأخرى. من الممكن أن أعدد عشرات بل مئات الأعمال. لكن هذا ليس ما ترغبونه، أنتم تريدون معرفة ما حدث معي في الحياة الواقعية. غير أنه للأسف ليس عندي نشاط مميز إلى الآن يستحق الحكي. بالطبع أمارس مجموعة الأفعال الحيوية التي تبقيني حياً، إنما، وبعد أن شارفت على بلوغ الثلاثين، لا أجد ما يستحق. قد يكون المأزق في رؤيتي، هناك من يستطيع تحويل أبسط حدث إلى واقعة درامية تنافس الأعمال الكبرى، لكني أؤمن أن للمغامرة شروطاً تعطيها حق حمل الاسم، والحياة أيضاً لها شروطاً ترشحها للتدوين، القدرة على التنفس والكلام والتزاوج لا تكفي لتسرد حكايتك.

هذه باختصار قصتي التي ترغبونها، وكما ترون فإنها انتهت قبل الكلمات الثلاثمائة التي حددتموها، ولأني أعتقد أنكم لن تتهاونوا مع هذا، لأنه الشرط الوحيد الذي وضعتموه، أضيف الآتي.. طريقة التفكير تلك ترشح للانهيار، لكن ما منعني أن بطلي المفضل فلورنتينو اريثا مثلي يقضي على الوقت بأنشطة غير مهمة في انتظار تحقق هدفه.. الارتباط بحبيبته. رجل محظوظ وصل لما يريد".

في اليوم التالي حصلت على بطاقة بلاستيكية فارغة إلا من اسمي، لا شعار، لا رقم هاتف، لا مسمى وظيفي، فقط في منتصفها وبخط أسود محفور.. خالد مأمون. كانت أولى الرموز حول الغموض الذي علي تقبله من دون أسئلة. لا أحد يطرحها، يتصرفون على أن الأمور طبيعية. لم أتبين إن كان ذلك تجاهلاً متعمداً، أم غباءً، أو أنه الاعتياد الذي يحيل الغريب مألوفاً.. هل سيأتي علي حين لا يستوقفني وجودي في مؤسسة غير مدرجة على لائحة التكوين العام للدولة، تستقر في بقعة مهجورة يحيط بها سور يحمي تلالاً من الرمال ممنوع الاقتراب منها.

لكني ربما أبالغ في دهشتي. ما مدى علمي بالعالم على أي حال؟ في أزمان مغايرة كانت هناك ديناصورات بحجم عمارات، وبحار تنشق لتبلع ملوكاً. ما المانع من عجيبة إضافية. لماذا علي التوقف أمام تفاصيل هامشية فيما يفوتني الأهم، حسب اعتقاد عبد القوي، زميلي في العمل...

"لماذا لا تكتفي بأننا المرحلة الأعلى، جهة لا تباشر إلا المسائل المهمة والحساسة".

وبشكل منطقي كنت أوافقه، لكن تبقى عقبة أمام نهاية أسئلتي...

"جهة تابعة لمن؟".

يزفر ضيقاً ثم يتمالك نفسه محاولاً التحلي بصبر والد في مواجهة عناد طفله، إيماناً بأنه هكذا يحيطه بكل شيء خبراً...

"عشان ترتاح وتريحني.. إحنا جهة مهمتها البحث في كل شيء، ومتابعة كل شيء، لصالح من لست متأكداً، لكن المؤكد أننا في جانب الخير ضد الشر، أنا لست مشغولاً بهذا، لكني أقوله لك ليساعدك على تجاوز حيرة لا مبرر لها، لماذا تهتم بأسئلة لن تفيدك. هذا المكان موجود من زمن على ما أعتقد، معجزة أنه تم اختيارنا. وصراحة أنا شايف إنك بتطرح السؤال الخطأ، بدل ما تسأل ماذا نعمل؟ اسأل نفسك: كيف أعمل؟".

ملاحظة مقصودة سمعتها مرات عدة. رسالة يرددها آلياً.

إما أن الهواء طغى لحظة صنعه على بقية العناصر في جسده، أو استطاع تسخيره لمصلحته. يتحرك مثله، خفيفاً وسريعاً، يفاجئني وجوده، لا أسمع باباً يفتح أو خطوات تدق على الأرض. نحيف بما لا يستقيم مع شراهته المرضية للطعام، بعد أن غادر حياتي ظلت له صورة كاريكاتورية في ذهني: عظمة يستخدمها للكتابة أو لتمشيط شعره، ملابسه يزينها بالخضار. مجموعة متناقضات

اسمها عبد القوي، بقدر الهدوء الذي يتحلى به والمرسومة به ملامحه إلا أنه الكائن الأكثر إزعاجاً الذي صادفته، بدون أي مؤشرات ينتقل من حال لآخر، يقرر الكلام فلا يمكن مقاطعته، نبرة صاخبة ينقل بها ما يريد، وعادة ما يصمت في منتصف القصص التي لا تنفد من عنده، يعود هواءً ساكناً. قبل تمتين الصلة كنت أتجمد أمام تصرفاته، يستغرب من طريقتي، واعتبر هذا علامة على سرحان مرضي، أو الأسوأ.. عدم اهتمام بالآخرين. وكعادته فإن ما يعتقده غير قابل للمناقشة.

احترت في الموقع الذي يناسبه. عصي على التصنيف في مكان وظيفته إصدار التصنيفات والأحكام. أنا خرجت لهذا، وهو بقي، خبرته تمكنه من تفادي الأسئلة الصعبة، قلت له تعليقاً على تصرفاته...

"نحن ملزمون بالجدية".

فرد ببساطة هزمت جملتي...

"مين ألزمنا؟".

ألهذا يحبه الجميع؟

تورطنا في صداقة متغاضين كمراهقين عن غياب المشترك، بأنانية من يسعى إلى الاكتشاف لم أهتم بهذا، احتجت إلى دليل في المرحلة الأولى وخلالها لم يعد ثمة ما أخفيه عنه باستثناء أني أعيد تدوين ما يحدث.

منجرفاً فيما يقول، مسحوراً بلهجته وضحكته الطفولية التي تنافس ثرثرته، يشغلني بألغازه التي يتركها معلقة فوق رأسي...

"كلموني النهارده من اسكندرية.. تخيل حصل إيه".

هؤلاء لم يمكنني معرفتهم أيضاً. لكني تعلمت ألا أسأل لأنه سيتجاهل استفساراتي مستخدماً واحدة من حيله العجائبية. افترضت أنهم أهله، وأنه لخص العلاقة بهم في المساعدة المالية. إنما ومع توطد العلاقة بزملاء آخرين زاد الغموض الذي يحيط بعبد القوي وأصوله وعائلته. يتحدث عن الإسكندرية بما يوحي أنه عاش فيها طفولته وصباه، لكن بعض المفردات الصعيدية تعاند الارتباط الذي يحاول الإيحاء به. كل زميل لديه قصة مختلفة عنه يؤكد عليها وكأنه عاشره منذ طفولته.. واحدة من ألعاب قصرنا الذي يقوم على الأسرار والتناقضات. القصص تدور في محيط الدراما المبتذلة.. هارب من ثأر يطارده. لا، أهله قتلوا في حادث غامض. لا، لم يقتلوا، وليس هناك من ثأر، الأمور أبسط.. تخلى عنهم ليحيا كيفما شاء، عائلة فقيرة بشكل مبالغ فيه، والعدد ضخم، أبوه تسلى بالمضاجعة فأنجب سبعة بخلافه، فهل عليه تحمل مخلفات شهوة رجل آخر؟ حتى النبل له حدود يتوقف عندها، وليس عدلاً وصفه بالنذالة لأنه يرى الأمور بواقعية. المسألة كالتالي: إما أن ينقذ نفسه أو يغرق الجميع.. وما الفائدة وقتها!

يحبونه وينشغلون به، تفقد مؤسستنا روحها إن اختفى في مهمة أو لظرف خاص. مع هذا وجدت من يميل علي محذراً...

"خد بالك منه".

جملة كافية لينسجم الخوف منه بجانب الصداقة فيصبح لما يقوم به مهابة واحترام. غير أني لم أحذر، لم أمثل خطراً على أحد وعليه بالتحديد، وضعت نفسي في موقع العابر فأصبحت خارج دائرة الصراع. ما خفت منه بجدية.. الفراغ المريع الذي يحيط به ويجر إليه من يرتبط به، لا تاريخ، ولا حاضر، ولا مستقبل.. مجرد اللحظة التي يتواجد فيها ومع انصرافه فكأنه لم يكن.

بعد إسدال الستار وفيما الممثلون ينحنون للجمهور أفقت على أن الأعوام الخمسة التي صادقته فيها سراب، أسير بالساعات وأقف فجأة أكاد أجن.. لا ذكرى ثابتة، صور تنمحي قبل لضمها لأخرى، ليس فقط معه.. كل ما لمسه، من صافحه، من حكيت له عنه. هل حدث ما فات أم أنه مجرد تخيل طال أكثر مما ينبغي.